

لأبي عوف

الخطبات - لوطي بن الصوفي

هذه قصيدة من ثلاث مراحل: الأولى هي «اللاهوت»، والثانية هي «الناسوت»، والثالثة هي «الخلاص». وهي تمثل تجربة روحية مررت بها عام ١٩٥٦ حينما كنت في نيويورك، فأنشأت المرحلة الأولى والمرحلة الثانية، ولا زلت أمر بها في عام ١٩٦٤، وهو عام استيحاء المرحلة الثالثة.

وهكذا انقطع الهامي ثماني سنوات كاملة. وليست هذه أول مرة ينقطع عني فيها الهام الشاعر أو وحي الفنان أو شيطان الأدب الخالق. فمنذ أن نظمت قصائد «بلوتولاند» على مروج كيمبريدج وعلى ضفاف الكام بين ١٩٣٧ و ١٩٤٠ تزلت في ربة الشعر ستة عشر عاماً حتى عرفت الغربية من جديد عام ١٩٥٥ و ١٩٥٦، لا أقول على مروج مانهاتان أو على ضفاف الهدسون: فما هنالك مروج ولا ضفاف، ولكن بين ناطحات السحاب الجرداء والشهباء، حيث البشر معلّبون وحيث لا مفر من الاختيار بين قول الشعر وبين النيوروز أو العصاب.

وقد حسبت يومئذ أني برئت نهائياً من خطايا شبابي - أعني من اشعاري - ولكن نازعاً لا يقاوم دفعني مرة أخرى إلى خطيئة الفن؛ فلعل القارئ يغفر لي ما تقدم وما تأخر من هذه الذنوب.

ولست هنا بسبيل أن أكتب سيرتي الذاتية، وإنما يكفي أن أذكر شيئاً واحداً قد يعين القارئ على فهم هذه التجربة: وهو أني وقفت في ١٩٥٦ على أعتاب الكشلكة، بل وعلى أعتاب الدير، ولم ينقذني من هذه الأزمة الروحية إلا العدوان الثلاثي على مصر: فعدت لفوري إلى أهلي ووطني وانغمست من جديد في روح جماعي ووجدت في الدين القومي خلاصي.

اللاهوت^٧

١ : الخلق بالجدلية

تعالى اللهُ باري الكون بالفعل الذي جُئدا
ومفسدُهُ لينقذه فيحيا دائما ابدا
تعالى اللهُ قبل الخلق في الاشياء منفردا
حبيسَ كماله الخاوي يخاف السلبَ والبَدَا
فينقضَ نفسه في الكون متخذاً به جسدا
وينقذَ نفسه بالنقص متخذاً له وَلِدا
وكان الواحدَ الأحدا ، فقسَمَ نفسه عددا
وفي الثالوث عاش الله متحداً ومنفردا
فهذا الكونُ طفلُ الله فيه روحه اتقدا

٢ : الصوفي يركب العنقاء

وسبحانَ الذي أسرى بروحي في الدجى قَسْرا
وأركبني على العنقاء تطوي الجُدَيَّ والنُسْرا
واصعدني على المعراج سبعا ليلةَ الإسْرا
فلما صحتُ : يا غوثي ! تبدّلَ عسرُهُ يُسْرا
ومدّ الخيطَ بين النار والفردوس لي جسْرا
وادخلني حمى الملكوت من توتٍ الى مُسْرى
لأبصرَ عرشَ شاهنشاهَ بين الجند والأسرى
تخيّر في الورى موسى وحمّله عصا كسرى
وأعطى الابنَ يميناه وأعطى احمدَ اليُسرى

٣ : الخلق بالقاطيغوريات

تعالى موجدُ الوجود بالموضوعِ والذاتِ
 ليعرَفَ من هويته وبالعشرِ مقولاتِ
 (واولُ هذه « الجوهرُ » يوعى دونَ إثباتِ)
 و « بالكمِّ » و « بالكيفِ » ومختلفِ « العلاقاتِ »
 سبعينُ في « المكانِ » الحُرِّ سبعانِ الهوياتِ
 ولا موجودَ الا في « الزمانِ » الرائحِ الآتي
 وفي « الوضعِ » وفي « الحالِ » وفي « الملكِ » علاماتي
 وفي « الفعلِ » ابي الصيرورة العظمى لغاياتِ
 وعاشرها « انفعالُ » الكونِ بالقاطيغورياتِ

٤ : الكلمة تصبح اول خلق الله

وسبحانَ الذي أرسى منازلَه على أُسُسٍ
 وأنزلَ نفسَه في المادّة السفلى بلا دَنَسٍ
 فقبّلَ ثغَرَ آمَنَةٍ لترشِفَ روحَه القدُسي
 وحملَها وديعته قبيلَ الفجرِ في الغلَسِ
 فشقَّ البدرَ مولدُه وبعثرَ أنجمَ الكَتَسِ
 جميلُ الوجهِ احمده زكيُّ النفسِ والنفسِ
 محمدُ ، نورَ عبدِ الله ، يا رمزي ومقتبسي
 يقيمُ انتَ كالانسانِ عسَّ الليلِ في حدَسِ
 وانتَ الطفلُ في الثالوثِ نطفته من القَبَسِ

٥ : المعجزة تتكرر وتتكم في المهد

أنا ابنُ الله والعذراء في شرع الهوى اجتماعا

تَخَيَّرَ بِنْتَ عِمْرَانَ فَصَاهِرَ طَاهِرًا وَرَعَا
وَمَرِيْمُ بَيْتَ لَحْمِ اللَّهِ فِي أَحْشَائِهَا اضْطَجَعَا
تَمَثَّلَ رُوحُهُ بَشْرًا وَرَاوَدَهَا لِيَجْتَمِعَا
فَوَلَوْلَتِ الْبَتُولُ : اِرْحَمِي وَلَا تَمَسْسِي ! فَمَا اسْتَمَعَا
وَأَشْعَلَهَا بِوَقْدَتِهِ كَبْرَقِي فِي الدَّجَى كَلَمَعَا
وَفِي الثَّالُوْثِ عَاشَ اللَّهُ مُنْفَرِدًا وَاجْتَمَعَا
لِيَقْتُلَ نَفْسَهُ بِالْحُبِّ فِي زَيْبِي وَيَرْتَفَعَا
وَعَمَدَكُمْ بِنَارِ الْحُبِّ مِنْ أَحْشَائِهِ اَنْدَلَعَا

٦ : اللوغوس والخلقة

رَأَيْتُ الْعَقْلَ مَبْتَسِّئًا يَنَاجِي اللَّيْلَ فِي كَمَدٍ
أَنَا وَحْدِي مِنَ الْأَزْلِ ، أَنَا وَحْدِي إِلَى الْأَبَدِ
لِذَا سُمِّيتُ بِالْأَحَدِ ، لِذَا سُمِّيتُ بِالصَّمَدِ
بَلَا كُفٍّ وَلَا نَدٍّ وَلَا زَوْجٍ وَلَا وَلَدٍ
وَلَا حُبٍّ وَلَا بَغْضٍ وَلَا عِبٍّ وَلَا سَدٍّ
وَلَا خَلٍّ يَنَادِمُنِي وَنَنسَى الْوَقْتَ بِالنُّرْدِ
وَلَكِنْ نَقْطَةُ عَظْمِي بِلا خَطٍّ وَلَا عَدَدٍ
فَلَا تَعْجَبْ إِذَا اسْتَوْلَدْتَ هَذَا الْكَوْنَ مِنْ خَلْدِي
بَلَا فَرْجٍ وَلَا ظَنْثَرٍ وَلَا ضَرْعٍ وَلَا جَسَدٍ

٧ : ظل اللوغوس يسقط في الكهف

وَلَا تَعْجَبْ ، فَهَذَا الْكَوْنَ مِنْ أَضْغَاثِ أَحْلَامِي
كَكَابُوسِ كَثِيفِ الظِّلِّ مِنْ إِسْقَاطِ آلَامِي

به الانسانُ يحدجني ويرقبُ يومَ اعدامي
ويبعدُ نفسه دوني ويكشفُ سترَ أصرامي
ويفسقُ في مقاصيري ويهتكُ عرضَ احرامي
ويشئقُ نفسه بعدي بجبل المنطقِ الدامي
به الانسانُ مرآتي وطلنقي يومَ آلامي
عقيمٌ مثلُ أوهامي ، دميمٌ مثلُ الهامي
له روحٌ كشمطاءٍ بلا حَيَضٍ وإسقامِ

٨ : شفيعات الوجود

ولولا وجهُ آمنةٍ عروسي يومَ إسلامي
وزينبُ أمُّ أفراحي ومريمُ أمُّ آلامي
وعائشةُ مشتٌ في البيد مع جبريلَ قدّامي
واختُ المجدلِ الحبلى بحبّي في ربي الشامِ
وفاطمةُ سراجُ الكون تجلو ليلَ أيامي
وتطهرو لي طعامَ الخلد في أطباق أعوامي
لما استولدتُ احلامي ولا استعذبتُ أوهامي
بل استيقظتُ كالمدعور من نومي واحلامي
وطار الكونُ من خلّدي وعدتُمُ نسجَ أوهامي

٩ : شفيعتي في الدارين

وهذا أسُّ مملكتي ، وهذا سرُّ كئلكتي :
يدُ العذراء قد قبضتُ على مفتاح مملكتي
صليبُ الحبّ مشنقي ! دنتُ بالحبِّ تهلكتي !

ختمتُ الرحلةَ الصغرى وما استوفيتُ معركتي
وأقمتُ اليأسَ في نفسي وروحي جدًّا مُنهكةً
فيا سيدةَ الفيروزِ ، يا غوثي ومُدركتي :
خدمتُك دونِ اشراكٍ ، فما نفسي بمُسرَّكةٍ
وحقُّ الليلِ إنْ أرخى ، وحقُّ العينِ إنْ بكَّتْ
شفيعيَ أنتِ في الدارينِ ، مُنقذتي ومُهَلِّكتي

١٠ : الهيولى تتفاخر بالخلق

أنا العذراءُ أمُّ الكونِ ساهرةٌ على ولدي
وكان العقلُ من قبلي بلا قلبٍ ولا كبدٍ
وجودٌ واجبٌ اسمي يخافُ خطيئةَ الجَسَدِ
ويخشى الخلقَ بالأبعادِ والأزمانِ والعَدَدِ
رمىْتُ عليه طِلْسُمني لأنقذه من البَدَدِ
نصبتُ له فيخاخَ الحبِّ في الأبعادِ والأَمَدِ
فذاقَ العقلُ طعمَ الحبِّ من ثغري ومن جَسَدِي
وأخصبني بآلتهِ فذقتُ حلاوةَ الوَتَدِ
وهذا الكونُ طفلُ العقلِ صورةُ ربِّه الأبدي

١١ : العقل يتبرأ من الهيولى

فقال العقلُ : بلْ كذبتُ ، انا الينبوعُ نوراني
أهذا الشرُّ من عندي ؟ أهذا النقصُ برهاني ؟
أهذي صورتي انبعجتْ على طلعةِ انسانٍ ؟
معاذِي انْ يعبثَ الشوقُ في وجدي ووجداني

سريرُ العقل من نورٍ بلا نارٍ وأدرانِ
 حلفتُ عليكُ ، لا تنصتُ لتضليلِ وبهتانِ
 فأُمُّ الكونِ زانيةٌ وكلُّ ابنٍ لها زانٍ
 غشتُ ماخورَ بَعْلَزَبُونِ بينَ البُعْدِ والآنِ
 وهذا الكونُ بالفحشاءِ من بذرةِ شيطانِ

١٢ : العقل يلبس سربال الأين والتمنى

سمعتُ العقلَ تحت الليلِ يطرقُ بابَ صومعتي
 فقلتُ : اذهبُ ، انا متعبٌ ، ورأسي فوق مضجعتي
 فقال : افتحْ ، وحقُّ الليلِ لن تجدي مُخادعتي
 ألمَ تسألُ : تُرى ما الأينُ ، في شكٍّ وزعزعةٍ ؟
 انا الأينُ ، ابو الأبعادِ ، مشهورٌ بأربعةِ
 هي الأطوالُ والأعراضُ والأعماقُ مرتعقي
 وأركبُ صهوةَ الأزمانِ ، فالأحداثُ بردعتي
 وبالحسنِ تجادلني بلا لغوٍ وجعجعةٍ
 فقلتُ : ادخلُ ، فبابُ الفكرِ مفتوحٌ على سعةٍ

١٣ : السجن الاول

وكان الأينُ متشجعا بسربالِ وزُنَّارِ
 ومُعتمتا قلنسوةً تجلَّله بأسرارِ
 مسجوحٌ كلُّها سودٌ مجلَّةٌ بأوزارِ
 كبطريقٍ ببابِ الديرِ يستخفي من العارِ
 فقلتُ : اجلسُ . أجاب : اجلسُ ، فاني صاحبُ الدارِ

وانتَ الضيفُ يا مسكينُ فاحمدُ ربِّكَ الباري
فلولا الأينُ لانطلقتُ من الأبعاد أفكاري
وفرتُ روحُكَ المحمى وماتتُ دون إثمارِ
فسبحاني حفظتُ الكونَ في سجنِي وأسواري

١٤ : مونولوج الأين

انا ابنُ العقلِ انجبتني لأحفظه من النارِ
وقبلَ الخلقِ أضمرَني وحجبتني بأستارِ
وقال العقلُ : هيتا اخرجُ لتحبسَ كلُّ أفكاري
والا فرتِ الأفكارُ من أبراجِ أغواري
أقمْتُكَ حاكماً في الكونِ تجبرُهُ بإجباري
فكنْ جَبْرِي وناموسي ، وكنْ فظناً كجبارِ
وخذْ سوطي وأغلالي وأبراجي وأسواري
وكنْ سجانَ هذا الكونِ واحبسْ فيه أقماري
فانتَ الحارسُ المسؤولُ عن ذاتي وعن داري

١٥ : الجبر هو الخطيئة الاولى

فقلتُ : السمعُ والطاعةُ للمولى من القِدمِ
أجابَ : اخساً ! وسُخفاً لي ! سكبتُ الدمعَ من نَدَمي
فيا ويلاهُ من قلقي ومن جزَعي من العَدَمِ
انا بالحبِّ مصلوبٌ لأمسحَ شرَّه بيدمي
فكيف أعيثُ بالبغضاء في الأفلاكِ والسُدُمِ ؟
وليس الجبرُ من شَيْمِي : انا حرٌّ من القِدمِ
وكيف الحرُّ يُنجبُ غيرَ مختارٍ من الخَدَمِ

فخلَّ السوطَ والأغلالَ عن شُهيّ وعن سُدُمي
والأحرّ قوا بيتي ، وما بيتي بمُسْهِدِمِـ

١٦ : العقل يعشق الهوى

وهذي حيلتي الكبرى لأجمعَ شملَ أكواني
هوى الكونِ ناشئةٌ بلا عقلٍ ووجدانِ
لهيبُ العشقِ أدركها وأضرَمها كبركانِ
فخذُ حبيّ وغلّلتني به في الكونِ والآنِ
وكنْ طولي وكنْ عَرَضِي وكنْ عمقي وعمداني
ومسطرتي وفرجاري وممحاتي وميزاني
وضاجعُ هذه العذراءِ في حبٍّ وتحنانِ
وهندسها بأضلاعٍ وأقواسٍ اتهماني

١٧ : لا خلق بالعشق الخامل

ولكنّي أرى الحبَّ بلا حدّثٍ ولا حرّكةٍ
بلا خيرٍ ولا أثرٍ ولا ثَمَرٍ ولا بَرَكةٍ
ثباتُ الكونِ مقتلُهُ عدوٌّ مدّي شرّكةٍ
فخذُ يا أينُ طاقاتي ، وحرّكْ لي بها الحرّكةَ
أدرْ كوني مداراتٍ توالي النورَ والحلّكةَ
وخطّطْ لي مجالَ الفعلِ ممهوداً لمن سلّكةَ
مطيّتك الزمانُ الحرُّ مُعْطِي العقلِ والحرّكةَ
جوادٌ راکضٌ يعدو ، جموحٌ ، جلٌّ من ملكةٍ
وسرٌّ حولي به حبيباً نصيبُ أفعالكَ البرّكةَ